

الفصل الثالث

الإشارات الأمريكية والرفض العربي

- عبد الناصر يعترف: لقد عرفوا كيف يصطادونى.
- الجماهير العربية ترفض التنحى وما ترتب على حرب يونيو
- إسرائيل أنهت الحرب يوم ٨ يونيو.. ثم تلقت إشارة خضراء لاحتلال الجولان
- مستشار الأمن القومى الأمريكى ألح إلى إيبان بالهجوم على سوريا وضمن لإسرائيل عدم تدخل السوفيات عسكريا
- إسرائيل تعتمد على اليأس العربى والزمن.. والانتظار بجوار التليفون



قصة الهجوم على الجولان

طوال أيام ٥ و ٦ و ٧ يونيو كانت عملية «قتل الديك الرومي» في الشرق الأوسط تتقدم على أرض الواقع كما خطط لها بنجاح كامل. لقد تلقت مصر الضربة المقررة، والأردن فقد الضفة الغربية بعد أن حاولت إسرائيل إغراءه بالابتعاد عن طريق الجنرال أود بول كبير مراقبي الأمم المتحدة حينئذ. وكل من مصر والأردن قبلت وقف إطلاق النار غير المشروط، ولم يكن وقف إطلاق النار يمثل بعد قضية ملحة بالنسبة لسوريا، لأن المناوشات السورية في الحرب كانت محدودة حتى اليوم الثامن من يونيو، بالإضافة إلى أن مندوب سوريا في الأمم المتحدة أوضح أن بلاده ستمتثل لوقف النار العام.

مكالمة من البيت الأبيض

وفي مساء الخميس ٨ يونيو تلقى أبا إيبان وزير الخارجية الإسرائيلي مكالمة تليفونية مهمة من البيت الأبيض، كان أبا إيبان موجودا في نيويورك منذ بدأت مناقشات وقف إطلاق النار، وبعد قبول الأردن وقف إطلاق النار غير المشروط يوم ٧ يونيو، ثم مصر يوم ٨ يونيو، بدأ إيبان مستعدا للعودة إلى إسرائيل.

وطبقا لما سجله أبا إيبان نفسه فيما بعد فإن: «مستشارا في البيت الأبيض أبلغني بأن مستر جونسون شاهد وسمع خطابي في مجلس الأمن بشعور من التقدير.. ومضى هذا المسئول ليقول لي: أليس من الغريب أن سوريا، وهي منشأ (هذه) الحرب، ربما ستكون هي الطرف الوحيد الذي سينجو من الإذلال؟ أليس من المثير للتناقض أن دولة مثل الأردن، وهي أقل ارتكابا للذنب، أصبحت تعاني من خسائر ضخمة، بينما سوريا ستظل حرة لكي تبدأ مشهدا مميتا آخر؟».

ويعلق أبا إيبان بقوله: «لقد استنتجت من هذه الملاحظة أن واشنطن الرسمية لن تكون شديدة الأسى أو الحزن فيما لو عانت سوريا من بعض العقوبات.. حتى لا يبدو موقف الأردن محل عقاب، على رغم موقفه المعتدل حتى يونيو ١٩٦٧».

لقد أصبح أبا إيبان الآن - ٨ يونيو - أكثر فهما للغة التعامل الحقيقية مع البيت الأبيض، مما كان عليه في الأسبوع السابق للحرب، ومن الواضح أن هذا «المستشار في البيت الأبيض» والذي يملك التعبير عن «واشنطن الرسمية» لم يكن سوى والت روستو.

ولم تكن فكرة ضرب سوريا عسكريا والاستيلاء على مرتفعات الجولان خصوصا بعيدة عن التفكير الإسرائيلي، فالواقع أنها كانت من بين الخطط التي أعدتها هيئة أركان الحرب الإسرائيلية منذ سنة ١٩٦٤ وظلت تراجعها أولا بأول، والآن، فمنذ إخراج سلاح الطيران المصرى من المعركة فى الساعات الأولى من الحرب، أصبحت القيادات العسكرية الإسرائيلية ترى أمامها فرصة ذهبية لتنفيذ خططها المقررة لضرب سوريا، ولكن اللجنة الوزارية المصغرة داخل مجلس الوزراء الإسرائيلى لم توافق لأن أعضاءها كانوا واعين بالضبط لحدود الضوء الأخضر الأمريكى.

وهكذا فإن اللجنة الوزارية برئاسة ليفى اشكول. وفى مقدمتها موسى ديان وزير الدفاع، رفضت بالكامل خطط إسحاق رابين رئيس أركان الحرب وديفيد اليعازر قائد المنطقة الشمالية للاستيلاء على الجولان، وبحلول مساء يوم الخميس ٨ يونيو، أصبحت الحرب منتهية عمليا «بالنسبة لإسرائيل- على حد تعبير إسحاق رابين».

وفى منتصف الليل- ما زلنا يوم الخميس ٨ يونيو- اتصل رابين بديفيد اليعازر لكى يخطره رسميا بقرار اللجنة وبموقف موسى ديان خصوصا، وأنه عليه أن ينسى تماما خطة التحرك للاستيلاء على الجولان، بعدها ذهب إسحاق رابين إلى منزله لأول مرة منذ أربعة أيام لكى يبدأ نوما عميقا حتى الصباح.

الهجوم على الجولان

لكن فيما بين الثانية عشرة مساء الخميس والسادسة عشرة من صباح الجمعة ٩ يونيو، وقع انقلاب) فى تفكير موسى ديان- إن إسحاق رابين تلقى مكالمة تليفونية فى الساعة من صباح الجمعة، واستيقظ من نومه على صوت عيزرا وايز مان رئيس هيئة العمليات وهو يبلغه بالخبر القنبلة: لقد اتصل ديان بديفيد اليعازر منذ ١٥ دقيقة وأمره بمهاجمة السوريين فوراً! ويقول إسحاق رابين إنه اتجه فوراً إلى مقر القيادة حيث: «هناك عرفت بما حدث: إن (موسى ديان) جاء فى السادسة صباحا واجتمع بضباط المخابرات لتقييم الموقف حيث تأكد أولا من التفسخ الكامل للجيش المصرى فى (سيناء).. وقبل الساعة السابعة بقليل، ولأسباب لم أدركها مطلقا، أصدر أوامره إلى ديفيد اليعازر بالهجوم على مرتفعات الجولان، وحينما سمع اليعازر أوامر ديان فى التليفون.. كانت تلك الأوامر مفاجئة له تماما بما جعله عمليا يسقط من فوق كرسيه».

وفي البداية تضايق رابين لأن وزير الدفاع تجاوز اختصاصه ، حيث رئيس الأركان هو المختص بإصدار أوامر العمليات ، لكنه لم يجد هنا وقتا مناسباً للجدل مع ديان حول الاختصاصات ، والأكثر مدعاة للضيق بالنسبة لإسحاق رابين هو أن ديان لم يفسر له مطلقاً ، لا وقتها ولا بعدها سر هذا التحول الكامل في موقفه ما بين منتصف الليل إلى السادسة صباحاً .

لقد كان ديان يريد أن يضمن أولاً الانهيار الكامل للجيش المصري ، ومن هنا ظل حتى اللحظة الأخيرة مصمماً على أن يتوقف التقدم الإسرائيلي عند مضائق سيناء ولا يمتد إلى شاطئ قناة السويس ، ولكن الانهيار جاء كاملاً في القيادات العسكرية المصرية بأسرع مما توقع ديان ، فضلاً عن أنه بعد صدور قرار الانسحاب الكامل والشامل للجيش المصري من كل سيناء ، وتنفيذه بتلك الطريقة الفوضوية التي سجلتها صور الطائرات الأمريكية السرية بدقة بدقيقة ، جعل الوحدات المصرية تتفكك تماماً وتتحول من جيش مقاتل إلى زحام من الجنود الذين يتركون أسلحتهم ويتجهون بسرعة إلى غرب القناة ، تنفيذاً لأوامر مكتتبية صدرت من القيادة العامة بالقاهرة .

ضمان أمريكي بعدم تدخل السوفيات

أما الاعتبار الثاني الذي كان يخشاه ديان فهو احتمال التدخل العسكري السوفياتي ، حيث يرى ديان أن دافع السوفيات هنا بالنسبة لسوريا سيكون أقوى منه بالنسبة لمصر . والآن وبعد أن تلقى ديان الضوء الأخضر من لجنة التنسيق السرية في البيت الأبيض الأمريكي ، بشكل مباشر ثم بشكل غير مباشر عن طريق أبا اييان ، فإن الأمريكيين أصبحوا يضمنون لديان أن السوفيات لن يتدخلوا . أو على الأقل لن يتدخلوا بسرعة كافية . وهكذا نقلت طائرات التجسس والتصوير والمعلومات الأمريكية العاملة من القاعدة السرية المهجورة في صحراء النقب ، عملها على الفور من الجبهة المصرية إلى الجبهة السورية ، وأصبحت الأفلام التي تصورها تلك الطائرات أولاً بأول ، وعمليات التشويش على الاتصالات السورية بمثل ما تعامل من قبل مع الوحدات المصرية . . كتاباً مفتوحاً .

إذاعة وهمية

وفي البداية أخذ السوريون على غرة من الهجوم الإسرائيلي الشامل برا وبحرا وجوا ، حيث كانوا قد أصبحوا في حالة (استرخاء) نتيجة قرارات وقف إطلاق النار ، لكنهم سرعان ما بدأوا يقاتلون بشراسة طوال يوم الجمعة - ٩ يونيو - ولكن هنا أيضاً وقعت أشياء

غربية تماما، حيث سمع الجنود في الجبهة مثلا إذاعة دمشق- أو ما حسبوا أنه إذاعة دمشق- تعلن في الثامنة والنصف من صباح السبت ١٠ يونيو سقوط القنيطرة وهي المدينة الرئيسية للجولان في أيدي الإسرائيليين- ولم يكن هذا صحيحا بالمرّة في تلك اللحظة، لكن الوحدات المقاتلة في الجبهة لم تدرك ذلك إلا بعدها بساعتين ونصف الساعة، ولحظتها كان الوقت قد أصبح متأخرا لإنقاذ القنيطرة «إن تشويش الاتصالات» كان يؤدي مهمته بنجاح في الجبهة السورية بمثل النجاح الذي حققه من قبل في الجبهة المصرية. لقد استخدمت موسكو الخط الساخن مع واشنطن، وجرت ضغوط متنوعة في مجلس الأمن الدولي، ومراوغات متعددة من إسرائيل أحيانا ومن الولايات المتحدة أحيانا أخرى، وفي النهاية، حينما بدأ سريان وقف إطلاق النار أخيرا في الجبهة السورية في السادسة والنصف من مساء الجمعة ١٠ يونيو، كانت إسرائيل قد استولت بالفعل على مرتفعات الجولان، وبذلك أصبحت هناك ورقة مساومة أخرى ليتم استخدامها في الضغط من أجل استكمال العملية الجراحية الكبرى- عملية «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط».

وكان النجاح الكبير في هذه العملية كلها من نصيب ليندون جونسون، الذي لم يترك خلفه أى دليل قاطع على التواطؤ مع إسرائيل، وبذلك فإنه استوعب تماما دروس ١٩٥٦ بين إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، وحينما أعلنت الأردن ومصر في اليوم التالي من الحرب اشتراك طائرات أمريكية وبريطانية في الغزو الإسرائيلي، كانت الفكرة تفتقر تماما إلى الأدلة الدامغة التي لا بد منها في مثل هذه الحالة، وهو الأمر الذي دفع الملك حسين إلى سحب اتهامه علنا، لكن قضية جونسون كانت مع جمال عبد الناصر ومصر، وليس مع الملك حسين والأردن، وقد بادرت سبع دول عربية إلى قطع علاقاتها الدبلوماسية فوراً مع الولايات المتحدة.. ولم يكن جونسون ليستطيع استعادة تلك العلاقات إلا بصدور بيان واضح من جمال عبد الناصر يسحب فيه تهمة التواطؤ- وهو الأمر الذي ظل عبد الناصر يرفضه دائما- فإذا كانت أدلة التواطؤ العسكري ما تزال- وستظل لسنوات- خافية، فإن أدلة التواطؤ السياسي على الأقل موجودة ودامغة.

خديعة كبرى

وحينما ذهب الملك حسين بعد الحرب بأسبوعين ليقابل الرئيس جونسون في واشنطن، فإنه وجده متفهما لموقف الأردن، ولكنه وجده أيضا مشحونا بالمرارة- بالمرارة الشديدة على حد تعبير الملك حسين- ضد مصر وجمال عبد الناصر على وجه الخصوص.

وكان هذا أمرا ملفتا تماما، ففي الوقت الراهن على الأقل أصبح لدى جونسون من الأسباب ما يجعله راضيا تماما عن نفسه وعن سياساته في الشرق الأوسط- إن مصر لم يتم تحجيمها فقط، ولا تم سحقها عسكريا واحتلال جزء ملموس من أراضيها فقط. ولكن الأكثر إذلالا من ذلك أن إسرائيل بمفردها هي التي تبدو فقط في الصورة كأداة في هذا الإذلال، لقد بدا على السطح أن إسرائيل وإسرائيل وحدها، هي التي دمرت ثلاثة جيوش عربية واحتلت سيناء وغزة والضفة الغربية والجولان، وهي التي تتكلم الآن كمنتصر، وليس أمام مصر سوى أن تدفع ثمن الهزيمة، بل وأيضا تتحمل نصيبها صاغرة من «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط» طبقا للمذكرة السرية التي أصبحت موجودة على مكتب الرئيس جونسون منذ السابع من يونيو.

والآن فإن السؤال الملح هو: هل ستمضى تلك العملية فعلا كما هو مخطط لها؟ الواقع أن هذا السؤال وإجاباته المحتملة، كان هو أيضا الشغل الشاغل في القاهرة منذ الدقيقة الأولى لحرب ١٩٦٧، لقد أدركت مصر أنها وقعت في خديعة كبرى، وأدرك جمال عبد الناصر أن رأسه ونظامه مطلوبان من الرئيس جونسون، وأن ما يجرى ليس أقل من عملية كبرى تستهدف «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط»، وهي عملية لم تكن وليدة اللحظة، ولا وليدة أحداث شهر مايو سنة ١٩٦٧ كله، إنها عملية جرى التخطيط لها قبل وقت طويل، وبإحكام ودقة، وفي صمت وتكتم، بحيث إن الأداة وحدها التي تبدو على المسرح، بينما الفاعل الحقيقي لم يترك سوى إشارات وشواهد متفرقة لا تكفى لإثبات سبق الإصرار والترصد منه بطريقة قاطعة.

عرفوا كيف يصطادونى

وربما في نفس اللحظة التي كان الرئيس جونسون يقرأ فيها تلك المذكرة السرية من مستشاره للأمن القومى عن سياسات المستقبل في الشرق الأوسط، كان الرئيس جمال عبد الناصر يجلس وحيدا في غرفة في منزله، واضعا رأسه بين كفيه، ومتمتما بكلمات قليلة صدرت في تلك اللحظة منه بإحساس غريزي بأكثر مما صدرت بحكم معلومات قاطعة، لقد دخل عليه أحد كبار مساعديه فسمعه وهو يتمتم كما لو كان يكلم نفسه: « لقد عرفوا كيف يصطادونى! » ..

وبرغم الإصرار الأمريكى في مجلس الأمن منذ اللحظة الأولى للحرب على عدم إدانة إسرائيل ومنع أى قرار يطالبها بالانسحاب، وبرغم تنكر الرئيس الأمريكى للتعهدات

السابقة بأن تقف الولايات المتحدة ضد أى عدوان فى المنطقة. وفى أى شكل علنى أو سرى، وبرغم تنكره أيضا لتعهدده قبل الحرب بـ ١٣ يوما فقط بأن تظل الحدود القائمة بين إسرائيل وجيرانها هى تلك التى رسمتها اتفاقية الهدنة فى سنة ١٩٤٩، وبرغم الانكشاف المفاجئ لوجود سفينة التجسس الأمريكية «ليبرتى» على الحدود البحرية بين مصر وإسرائيل منذ بدء القتال، ولغز قيام إسرائيل فيما بعد بإغراقها ثم إغلاق جونسون لهذا الملف بسرعة.. وبرغم.. وبرغم.. إلا أن الجزء الذى أصبح ماثلا للعيان على أرض الواقع هو فقط ذلك الانهيار السريع الذى وقع فى القوات المسلحة المصرية، وسوء التقدير الفادح فى الحسابات السياسية. وأبرز ما فيه هو التعهد المصرى المسبق لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بعدم توجيه الضربة الأولى مطلقا ضد احتمالات الغزو الإسرائيلى.

وأصبح من الطبيعى أن يتحمل الرئيس جمال عبد الناصر المسئولية كلها، ومن ثم فقد أعلن فى التاسع من يونيو ١٩٦٧ قراره المفاجئ بالتنحى عن السلطة فى مصر، فيما يعبر من جانبه لفهم الحقيقة والمغزى من حرب يونيو، وأدرك بأنها الفصل الأول فى عملية كبرى «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط».

إعادة البناء

وينفس الإحساس الغريزى رفض الشعب المصرى، والعالم العربى كله، تنحى عبد الناصر من السلطة فيما أصبح يعنى رفضا شاملا لأهداف حرب يونيو من أساسها، هكذا بدأت عملية كبرى لإعادة بناء القوات المسلحة فى مصر من تحت الصفر وإعلان مبدأ «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة»، ولترجمة مشاعر الغضب والثأر إلى برنامج عملى وشامل للنهوض من جديد.

كانت إسرائيل قد خرجت من حرب يونيو فى صورة الدولة الصغيرة التى انتصرت بمفردها على جيرانها الأقوياء. ولقنتهم جميعا درسا لن ينسوه، تروج له بالصوت والكلمة والصورة حول العالم كله، والآن فإن إسرائيل تريد أن تفرض شروط المنتصر لأنه ليس أمام العالم العربى من بديل سوى الإنذاع، وأول ما تطلبه إسرائيل هو أن يأتى إليها العرب على مائدة التفاوض المباشر.

وفى الأسبوع الثانى من يونيو خرج أبا إيبان وزير الخارجية الإسرائيلى يعلن: أن ما تريده إسرائيل (الآن) بسيط جدا، وما تريده هو: الأمن والسلام!

وحتى لا يقع أحد ضحية البراءة الظاهرة للكلمات، فإن إيبان يستدرك بسرعة قائلا:
لكن الأمن والسلام لهما مضمون إقليمي يتعلق بالأرض.

الانتظار بجانب التليفون

أما بالنسبة للرئيس الأمريكي ليندون جونسون، فإن المكالمات التليفونية التي ظل ينتظرها مع مستشاريه في واشنطن هي التي تحمل خبر انهيار مصر من الداخل تحت وطأة الهزيمة الكبرى - بانقلاب عسكري، أو بإفلاس اقتصادي، أو بثورة شعبية، أو بكل هذا معا - فتلك هي المقدمة التي لا يمكن بغيرها المضي في «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط». لقد تنكر جونسون لكل تعهداته السابقة وقام بحماية إسرائيل داخل الأمم المتحدة من أي مشروع قرار يدين عدوانها أو يطالبها بالانسحاب.. وبدلا من ذلك خرج يهاجم مصر ويحملها المسؤولية الكاملة لما جرى، معتبرا أن القصة كلها بدأت من (حماقة) إغلاق خليج العقبة.

وهكذا لم تكن الهزيمة بالنسبة لمصر عسكرية فقط، ولكنها كانت سياسية أيضا حينما اضطرت بحكم الضرورة إلى قبول وقف غير مشروط لإطلاق النار بعد أن أصرت الولايات المتحدة على عدم إدانة إسرائيل أولا، وعدم مطالبتها بالانسحاب ثانيا، وقد ترى مصر أنها هزمت في معركة، ولكن جونسون سيظل يرى أنها هزمت في حرب. ومن ثم يرى أنه الآن أصبحت له الكلمة الخيرة.

ومنذ البداية لاحظ الإسرائيليون أنه «حتى اليوم لم تتفوه الولايات المتحدة بكلمة واحدة ضد أعمالنا العسكرية، وممثلها في الأمم المتحدة قاوم بشدة ونجاح كل المحاولات السوفيتية للحصول على قرار يدين إسرائيل ويطالب بالانسحاب قواتها».

وبالطبع لم يكن متصورا أن تشارك الولايات المتحدة في إدانة إسرائيل على غزوة شاركت هي في تخطيطها، أما وقد انتهت الحرب فقد أصبح متصورا أن تتظاهر الدبلوماسية الأمريكية على الأقل باحترام ميثاق الأمم المتحدة الذي كانت هي الهدف الأكبر في صياغته من البداية.

إن الأمم المتحدة كمنظمة دولية لكي تجسد الأساس الجديد في مشروعية العلاقات الدولية فيما بعد الحرب العالمية الثانية، وحينما انعقد مؤتمر «الأمم المتحدة» في ٢٥ إبريل سنة ١٩٤٥ بمدينة سان فرانسكو الأمريكية لمناقشة مشروع الميثاق الذي ستقوم على أساسه منظمة جديدة باسم «منظمة الأمم المتحدة» كان أساس النقاش هو مذكرة أمريكية تستوعب

الدروس التي كشفت عنها فترة ما بين الحربين العالميتين، وفشل عصبة الأمم المتحدة القديمة في فرض العقوبات على الدول التي رتبت لنفسها مكاسب إقليمية «حق الفتح والغزو العسكري»، ولذلك أصبح المبدأ الجوهرى فى ميثاق الأمم المتحدة هو «عدم جواز الاستيلاء على الأرض بالقوة العسكرية». هكذا أصبح أساس العلاقات الدولية الجديدة فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية هو إصرار المجتمع الدولى على رفض أى اعتراف بحق الغزو والفتح العسكرى، وبالتالي لا يجوز للمعتدى أن يحصل أبداً على ثمار لعدوانه.

أمريكا تصر على المفاوضات

ومع ذلك فطوال مناقشات مجلس الأمن الدولى عقب نشوب حرب يونيو ظل آرثر غولد بيرغ ممثل الولايات المتحدة مصرا رسميا على ضرورة أن يتفاوض العرب أولا مع إسرائيل على ما اسماه: «القضايا السياسية التى غذت نيران الصراع فى المنطقة لعقود عديدة»، وذلك قبل أى تفكير فى مطالبة إسرائيل بالانسحاب إلى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧، وحينما يتم تجريد الكلمات من غلافها الدبلوماسى الرقيق فإنها تعنى عملية مكافأة إسرائيل على عدوانها، بل إن غولد بيرغ رفض أصلا استخدام كلمة «عدوان» أو احتلال «واستبعد تماما أى إشارة إلى ضرورة عودة إسرائيل إلى مواقع ما قبل الحرب، وهى سابقة خطيرة يمكن أن تنسف ميثاق الأمم المتحدة من أساسه، وبالتالي تنسف أساس الشرعية الدولية القائمة فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وبينما العرب يصرون على مبدأ الانسحاب الإسرائيلى الكامل، كان موقف غولد بيرغ هو التهكم على هذا الإصرار بكلمات ساخرة يقول فيها: إن العرب يريدون إعادة الفيلم إلى الخلف فى «البروجى كنور»!

وفى مقابل ذلك برز الرئيس الفرنسى شارل ديغول كزعيم غربى أعلن من قبل الحرب أن فرنسا ستكون ضد الطرف الذى يبدأ بالعدوان، وحينما بدأت إسرائيل الحرب أعلن ديغول بوضوح إدانة إسرائيل، وكذلك أوقف كل صادرات الأسلحة الفرنسية إليها، بما فى ذلك خمسون طائرة «ميراج» كانت إسرائيل قد سددت ثمنها فعلا.

